المناسبات القرآنية في تفسير المنار

إعداد: حمادة ربيع عبد الحكيم عبد الرحيم
مدرس بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة المنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن من أشرف العلوم على الإطلاق علم التفسير؛ لأنه العلم الذي يدور في فلك تفسير أجل وأعظم كتاب – القرآن الكريم – الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[1].

وقد قيَّض الله – تعالى- من أبناء هذه الأمة من يقوم على رعايته، حفظًا، ومدارسَة، فيعمل على تجلية حقائقه من خلال دراسة موضوعاته المتعددة، وقد دعانا الله – تعالى- إلى قراءته، وتدبر آياته، وفهم أسراره، ومعرفة أحكامه، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾[2].

ومما يُعين على هذا التدبر والتفكر علم المناسبات، وهو العلم الذي يعتمد على النظر في الروابط بين الآيات والسور والمقاطع القرآنية، وقد أولى العلماء – قديمًا، وحديثًا – هذا العلم عنايةً فائقةً، حيث تعرضوا له في كتبهم: تأصيلًا، وتقعيدًا، وتطبيقًا، وممن أسهم في العناية بهذا العلم – حديثًا – الإمام محمد رشيد

(١) سورة فصلت: الآية: ٤٢.

(٢) سورة ص: الآية: ٢٩.

رضا، من خلال تفسيره الموسوم بتفسير: (**المنار**)، فقد تعرَّض له في تفسيره بصورةٍ واضحةٍ، من خلال ذكره للمناسبات بين آيات وسور القرآن، وقد بذل في ذلك جهدًا كبيرًا، ووقتًا كثيرًا، حتى ظهر للناس في عبارةٍ دقيقة رقيقةٍ، وأسلوبٍ جذَّابٍ، مترابطٍ، ؛مَا لهذا التفسير من أهمية، فقد تسابق الباحثون في البحث عن جوانبه المتنوعة والمتعددة.

هذا، ولما كان علم المناسبات يُمَثِّل أحدى تلك الجوانب المهمة التي اهتمَّ بها الإمام محمد رشيد رضا في تفسيره، رأيت أنْ يكون بحثي في هذا الموضوع من خلال ذلك التفسير، مبينًا تلك المناسبات، التي تعرَّض لها الإمام؛ فكان هذا البحث: "**المناسبات القرآنية في تفسير المنار**".

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١- المساعدة في إزالة حيرة بعض الناس؛ لِمَا يروه من تعارض ظاهري بين الآيات القرآنية.

٢- معالجة ظاهرة التقليد المحض الذي عطل العقول والمدارك عن مسايرة دورها في التدبر والتعقل.

٣- إثبات ما يتمتع به القرآن من اتصال محكم، وتناسق دقيق، وتآلف مُشّوق بين سوره وآياته، وأن ذلك يُعد من أوجه إعجازه، ودلالة حقيقية على أن القرآن الكريم إنما هو كلام الله –تعالى– وحده.

منهج البحث:

١. اعتمدت في دراستي على المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يعتمد على القراءة المتأنية وتحليلها، ثم استخراج ما يُمكن استخراجه من المناسبات القرآنية، وذلك حسب مقتضيات البحث.

٢. ربط ما ورد من مناسبات بين الآيات وبعضها، وبين الآيات والواقع المعاش – ما أمكن ذلك – على اعتبار أن ما وقع من مناسبات قرآنية يُعد أحدى قواعد الإصلاح في المجتمع.

خُطة البحث:

ومن خلال تفسير المنار نحاول استنطاق ألفاظه، وسبر أغواره؛ كي يُبِينَ لنا عن مظاهر اهتمام صاحبه بهذا الجانب الإعجازي، ولبيان ذلك فقد وقعت الدراسة في ثلاثة مباحث، ومقدمة، وخاتمة، على النحو التالي:

أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية البحث، وأسباب اختياره، ومنهجه، وخطته.

وأما المباحث الثلاثة فقد جاءت كالتالي:

المبحث الأول: التعريف بعلم المناسبات

وقد جاء في مطلبين:

- **المطلب الأول:** تعريف المناسبة لغة واصطلاحًا.
- **المطلب الثاني:** فوائد المناسبات وموقف العلماء منها.

المبحث الثاني: الإمام رشيد رضا وكتابه المنار

وقد جاء في ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** التعريف بالإمام والكتاب.
- **المطلب الثاني:** عناية رشيد رضا بالمناسبات القرآنية.
- **المطلب الثالث:** معالم البحث في المناسبات القرآنية.

المبحث الثالث: أنواع المناسبات في تفسير المنار.

وبعد هذه المباحث الثلاثة ختمت البحث بإشارة سريعة عن منهج الإمام رشيد رضا في ذكره للمناسبات؛ حتى يتسنى لنا معرفة ما تميز به منهجه في ذكره للمناسبات القرآنية، وقد يرجع ذلك إلى أهمية جمع مناسباته في كتاب مستقل يضيف جديدًا إلى ما كُتّب في إعجاز القرآن وبيان وجوهه.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول

التعريف بعلم المناسبات

المطلب الأول: تعريف المناسبة لغة واصطلاحًا:

– لغة: من (نسب): النون والسين والباء كلمةٌ واحدة قياسُها اتِّصال شيءٍ بشيء. منه النّسَب، سمِّي لاتِّصاله وللاتِّصالِ به. تقول: نَسَبْتُ أَنْسُبُ. وهو نَسِيبُ فلانٍ. ومنه النَّسيبُ في الشِّعر إلى المرأة، كأنَّه ذِكْرٌ يتَّصِل بها، ولا يكون إلَّا في النِّساءِ. والنّسيبُ: الطريق المستقيم، لاتِّصال بعضه ببعض. والنَّسَبُ مُحَرَّكَةً: واحد الأَنساب. النِسْبَة بالكسْرِ والضَّمِّ والنَّسَبُ: القَرَابَةُ. والنُّسْبَة بالضَّمّ: الاسْمُ، والجمعِ نُسَبٌ، والنَّسِيبُ: المَنَاسِبُ، والجَمْعُ نُسَباءُ وأَنْسِبَاءُ. رجلٌ نَسِيبٌ، أَي: ذُو الحَسَبِ والنَّسَب، كالمَنْسُوبِ فيه. ويُقَالُ: فُلانٌ نَسِيبِي، وهُمْ أَنْسبائي، وتقول: ليس بينهما مُناسَبة، أَي: مُشاكَلةٌ[(١)].

والملاحظ من التعريف اللغوي للمناسبة أنه يرجع في الأصل إلى أربعة معانيَ متقاربة، هي: الاتصال، الارتباط، القرابة، المماثلة.

– اصطلاحًا: يقول البقاعي في تعريف علم مناسبات القرآن، هو: "علم تُعْرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال"[(٢)].

---

(١) انظر: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ت ٣٧٩ هـ – تاج العروس من جواهر القاموس — د. ت، أحمد بن فارِس بن زَكَرِيّا، أبو الحسين ت ٣٩٥ هـ — معجم مقاييس اللغة – تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون – اتحاد الكتاب العرب – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري٧١١ هـ – لسان العرب – دار صادر — بيروت — د.ت – ١٩٩٥م – باب(نسب).

(٢) إبراهيم بن عمر البقاعى، برهان الدين أبو الحسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، جـ١، ص٦. والبقاعي: هو الحافظ برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الشافعي، برهان الدين أبو الحسن، العلامة، المحدث، الحافظ. (٨٠٩ – ٨٨٥ هـ – ١٤٠٦ – ١٤٨٠م)، أخذ القراءات عن ابن الجزري وغيره، والحديث عن الحافظ بن=

ويمكن شرح التعريف بأنه علم يُعْرَف به بيان وجه الارتباط بين جملتين في آية واحدة، أو بين آية وآية في آيات متعددة، أو بين سورة وسورة مجاورة، أو بين سور القرآن بعضها في إثر بعض.

وعليه فإن علم المناسبات يتناول كل أحوال البيان التركيبية والترتيبية، كما أنه يُحاول الكشف عن سر تكرار القصص القرآني، فكل قصة تم إعادتها فلمعنى جديد، لا يوجد في عناصر القصة السابقة أو اللاحقة لها، ومعنى ذلك أنه ليس هناك تكرار في القرآن الكريم.

ومن هنا يتبدى لنا مدى التوافق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لعلم المناسبات؛ حيث إن كليهما يعني: أن بين كل آية وآية رباط من نوع ما، غير أن ذلك لا يعني أن تكون الآيتان المتجاورتان أو الآيات المتجاورة متشابهة كل التشابه، بل قد تكون علاقة الرباط بينهما هي علاقة تكامل، بمعنى أن الآية الثانية مكملة للأولى، أو قد تكون العلاقة بينهما علاقة توضيح وبيان، وغير ذلك من العلاقات الأخرى.

والمقرر في ذلك أن هناك صلَّة ما بين الآيتين، أو بين الآية والآيات التي تسبقها، أو تلحقها، أو بين الآية وبين أجزاء السورة كلها، أو بين الآية وجملة القرآن الكريم كله. وغاية ما في الأمر أنه سواء توصل العلماء إلى العلم بهذه المناسبات أم لم يتوصلوا؛ فالمناسبة موجودة، لكنها قد تظهر، وقد تخفى، وفي هذا مجال لتسابق الفهوم والعقول، ولإثبات إعجاز القرآن الكريم.

حجر، والفقه عن التقي بن قاضي شهبة. ولازم القاياتي، والونائي، وسائر الأشياخ. وله تصانيف كثيرة حسنة منها كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) و(النكت على شرح ألفية العراقي). انظر: جلال الدين السيوطي- نظم العقيان في أعيان الأعيان - المكتبة العلمية – بيروت - د.ت - ص٢٤، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ت (١٣٩٦هـ) – الأعلام - دار العلم للملايين - الطبعة الخامسة عشرة - ٢٠٠٢م - جـ١ – ص٥٦.

المطلب الثاني: فوائد المناسبات وموقف العلماء منها:

أولًا: فوائد معرفة المناسبات في القرآن:

إذا كان لمعرفة أسباب نزول الآيات أثر في فهم معناها على الوجه الصحيح فإن معرفة مناسبات الآيات لبعضها لا تقل أهمية عن معرفة أسباب نزولها؛ إذ إنها مما يعين على فهم الأسرار المكنونة في الآية، وحسن تأويلها، ودقة فهمها.

وإذا عُلم أن القرآن يبث معانيه من خلال مقاصده العامة، وإذا كانت هذه الأغراض موزعة على كافة الآيات والسور، فلو جُمع كل نوع من هذه الأغراض على حدة لأصبح القرآن أشبه بكتاب في القانون، يُرجع إليه متى احتجنا إلى مراجعة مَسْأَلَةٍ مِنْ مسائله، فنَظْمه على هذا الوجه فيه مِنَ الْمُنَاسَبَةِ مَا يُدْهَشُ له أَصْحَابُ العقول، بِحُسْنِ ترتيبه وَتَنَاسُقِ معانيه.

يقول رشيد رضا: "وَأَمَّا أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ فَالْكَلَامُ فِيهِ هُوَ الْبَحْرُ الْخِضَمُّ،... فَإِنَّهُ أَظْهَرَ وُجُوه الْإِعْجَازِ اللَّفْظِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنْ يَمْزِجَ فُنُونَ الْكَلَامِ، وَيُنَظِّمَ مَقَاصِدَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَتَبَايُنِ مَوْضُوعَاتِهَا، مَزْجًا مُتَلَائِمًا، وَنَظْمًا مُتَنَاسِبًا مُتَنَاسِقًا...مَعَ مُنْتَهَى الْإِحْكَامِ وَالْمُنَاسَبَةِ"(١).

ثانيًا: موقف العلماء من علم المناسبة:

١- المؤيدون لعلم المناسبات:

يُعدُّ المؤيدون علم المناسبات أحد أوجه إعجاز القرآن، كما يُعّد أبو بكر النيسابوري(٢) (ت: ٣٢٤هـ) أول من سبق إلى الدعوة لهذا العلم، حيث كان يقول إذا قُرئت عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ... وما الحكمة في جعل هذه السورة ملاصقة للأخرى. وكان يُلقي باللائمة على علماء بغداد؛ لإهمالهم

(١) محمد رشيد بن علي رضا ت(١٣٥٤هـ)- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠م – جـ٩- ص٢٩٨.

(٢) النيسابوري: ابن زياد (٢٣٨ – ٣٢٤ هـ – ٨٥٢ – ٩٣٦م) عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري، أبو بكر: حافظ للحديث، كان إمام الشافعية في عصره بالعراق. انظر الزركلي – الأعلام – ٤/ ١١٩.

علم المناسبات[١]، هذا، ولم تكن دعوة الإمام لهذا العلم إلا مجرد محاولات اجتهادية له في بعض مجالس العلم.

كما كانت هناك محاولات للإمام بن العربي (ت: ٥٤٣هـ) للكتابة في هذا العلم، غير أنه توقف. يقول أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ): "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حَملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددنا إليه"[٢].

وكان ممن اهتم بهذا العلم الإمام فخر الدين الرازي، (ت: ٦٠٦هـ)، الذي أظهر في تفسيره "مفاتيح الغيب" عناية واضحة بالمناسبات القرآنية، والذي قال عنه في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[٣].

---

(١) انظر: محمد بن عبد الله الزركشي، بدر الدين – البرهان في علوم القرآن – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي – ط١ – ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م – جـ١ – ص ٥٣.

(٢) الزركشي – البرهان – ١/ ٣٦، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي– الإتقان في علوم القرآن – تحقيق: سعيد المندوب– دار الفكر – لبنان – ط١– ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م– جـ ٢– ص ٣٤٩. وابن العربي: هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي(٤٦٨ – ٥٤٣ هـ – ١٠٧٦ – ١١٤٨م): قاض، من حفاظ الحديث. ولد في أشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتبا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. ولي قضاء أشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها. من كتبه (العواصم من القواصم)، و (أحكام القرآن)، وغير ذلك. انظر: الزركلي – الأعلام – ٦ /٢٣٠.

(٣) محمد بن عمر التميمي الرازي، فخر الدين، الشافعي– مفاتيح الغيب – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م – جـ١٠ – ص ١١٣، الزركشي – البرهان – ١/ ٣٦، السيوطي – الإتقان – ٢/ ٣٤٩. والرازي: هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي ت (٥٤٤ – ٦٠٦هـ – ١١٥٠ – ١٢١٠م). الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، المولد والوفاة في هراة، من تصانيفه (مفاتيح الغيب)، (معالم أصول الدين) وغير ذلك. انظر الزركلي – الأعلام: ٦/٣١٣.

يقول د. وجيه محمود: "وإنه ليمكننا القول بأن الرازي يُعد أول من أولى المناسبات القرآنية هذه العناية الواضحة، ويُعد تفسيره أول كتاب يُعنى بذكر المناسبات بمعناها الاصطلاحي، فما ذكره الزركشي والسيوطي عن أبي بكر النيسابوري وابن العربي من عنايتهما بالمناسبات لا يشي بأسبقيتهما في التصنيف في هذا العلم"(١).

هذا، ويُعد تفسير الإمام البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ، من أنفس التفاسير التي خُصصت لدراسة علم المناسبات في القرآن، ويتجلى ذلك في قوله: "وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها..."(٢).

٢- المعارضون لعلم المناسبات:

وكان ممن عارض هذا العلم من العلماء بدعوى أنه تكلف الإمام العز بن عبد السلام، كما وصفه الإمام محمد بن علي الشوكاني بأنه وقوع في المحظور.

يقول العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ): "المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر. قال: ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه، إلا برباط ركيك يُصان عنه حسن الحديث، فضلا عن أحسنه..."(٣).

---

(١) د. وجيه محمود أحمد - المناسبات القرآنية في تفسير الفخر الرازي - دار المعرفة - ٢٠١٠م – ص٢٩.

(٢) البقاعي - نظم الدرر - ١/ ١٥، ١٦.

(٣) الزركشي – البرهان - ١/ ٣٧، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام - ت (٦٦٠هـ) - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز - المطبعة العامرة - الأستانة - ط١ - ١٣١٣هـ - ص ٢٢١. وابن عبد السلام، هو: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء، (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ - ١١٨١ - ١٢٦٢م) فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. توفي بالقاهرة، من كتبه التفسير الكبير، وغير ذلك. انظر الزركلي - الأعلام: ٤/٢١.

ويقول الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ): "اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه، في الأمور المتعلقة بكتاب الله -سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية..."(١).

واضح أن الإمام العز بن عبد السلام لا يعارض وجود المناسبة والترابط بين الكلام، إذا كان الكلام في أمر متحد، أما إذا كان الكلام غير متحد الموضوع فهو يراه أمرًا متكلفًا، معللًا ذلك بأن الرباط بينهما سيكون ركيكًا.

أما الإمام الشوكاني فهو يرفض ذلك العلم تمامًا، حيث يصفه بأنه تكلف، ولا توجد فائدة متحققة من دراسته، وأنه قول على الله بمحض الرأي المنهي عنه.

وقد تابعهما في هذا الرأي (من المحْدَثِين) الدكتور: صبحي الصالح، حيث يقول: - "فإن وقع – أي: التناسب - في أمور متحدة، مرتبطة أوائلها بآخرها؛ فهذا تناسب معقول مقبول، وإن وقع على أسباب مختلفة، وأمور متنافرة؛ فما هذا من التناسب في شيء"(٢).

٣- مناقشة آراء الرافضين لعلم المناسبات:

يمكن مناقشة رأي المعارضين أو المانعين لهذا العلم من عدة وجوه، هي:

الأول: كيف يمكن القول بأن علم المناسبة علم سائغ إذا كان الكلام في أمر متحد، يرتبط أوله بآخره، وبأنه غير سائغ، إذا وقع على أسباب مختلفة، والرباط

(١) محمد بن علي الشوكاني ت (١٢٥٠هـ) - فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - دار الفكر - بيروت - جـ١- ص ٧٢. والشوكاني، هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، (١١٧٣- ١٢٥٠هـ - ١٧٦٠ - ١٨٣٤م. فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شوكان، من بلاد خولان، باليمن، نشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة (١٢٢٩هـ)، ومات حاكمًا بها. له مؤلفات منها: (نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار)، وغير ذلك. انظر: الزركلي الأعلام - ٦ /٢٩٨.

(٢) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن - ط ١٧ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ١٥٢.

بينهما ضرب من ضروب التكلف؟ كيف؟! ومن البدهي أن يرتبط الكلام المتحد ببعضه؛ لوجود المناسبة بين أجزائه، أما إذا وقع على أسباب مختلفة فالقرآن ذاته يدعونا إلى التدبر والتأمل، قال -تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾[1]، ومعلوم أن التدبر والتفكر لا يكون في الأمر القريب الواضح، وإنما هو إعمال العقل بعمق وفكر في الأمر البعيد المنال، ويدل علي ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾[2].

الثاني: إذا ذُكر في تفسير الآية قولان فكيف يمكن لنا ترجيح قول على آخر إذا تساوى الاثنان في القوة؟ أوَليس من البدهي أن يُبحث عن أيّهما أليق بارتباط أجزاء الآية، أو الآيات، بما يسبقها أو يلحقها، لترجيح ما هو مناسب للسياق ونظم الكلام، فإذا كان ذلك كذلك فإن لمعرفة المناسبة بين الآيات فائدة وأية فائدة؛ إذ إنها تساعد في بيان المراد من الآية على الوجه الصحيح.

الثالث: الرأي المنهي عنه في تفسير القرآن، وما يتعلق به من أحكام هو الرأي الناشئ عن الهوى، وهو الذي لا يلتزم فيه صاحبه بضوابط التفسير وقواعده الصحيحة، فهذا هو التفسير المذموم المنهي عنه، أما التفسير الممدوح المقبول فهو التفسير الذي يعتمد على المعرفة الكافية بالعلوم العربية، والشرعية، والأصولية، والفقهية، والعلم بالسنن والأحاديث، مما لا يعارض النقل الصحيح، أو العقل السليم، ولا يعارض العلم اليقيني الثابت المستقر، وعلى المفسر بعد كل هذا أن يبذل غاية ما في وسعه في البحث والاجتهاد، وكذا المبالغة في تحري الحق والصواب، وأن يجرد نفسه من الهوى، أو الاستحسان أو الانتصار لرأيه بغير دليل، ويجب عليه أن يراقب الله –تعالى– غاية المراقبة في كل ما يصل إليه.

الرابع: إذا كان ذكر المناسبة بين الآيات والسور يعمل على:

---

(١) سورة ص: الآية:٢٩.

(٢) سورة محمد: الآية:٢٤.

١. إبراز الوحدة الموضوعية والمعنوية بين الآيات والسور، بل القرآن كله.
٢. ترسيخ الاعتقاد في إعجاز القرآن الكريم؛ لِمَا يُظْهره هذا العلم من لطائف وأسرار.
٣. تعزيز رأي العلماء الذين يرون أن ترتيب السور توقيفي، وليس اجتهاديا.

وعليه، فإنه إذا كان الكلام في المناسبة مبني على الدليل العلمي الصحيح الذي لا يخالف مقاصد الدين والقرآن فهو صحيح لا يُمكن رده، أما إذا خالف شيئًا من ذلك فهو المنهي عنه.

ولعل ما يؤكد أهمية هذا العلم، "أننا وجدنا الإمام الطبري شيخ المفسرين النقليين والعقليين يعنى بالمناسبة في تفسيره، إلا أنه لم يصرح بها أو يُفرد لها حديثًا، وإنما جاءت في تفسيره تلميحًا، حيث يُفسر الآيات تفسيرًا يربط بينها ربطًا محكمًا، تستشف منه حرصه على المناسبات بين الآيات[١].

يقول الطبري:"القول في تأويل قوله -تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[٢]: يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾: أفلا يتدبر المَيتُونَ غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم؛ لاتساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض"[٣].

(١) د. وجيه محمود أحمد - المناسبات القرآنية في تفسير الفخر الرازي- ص٢٥.
(٢) سورة النساء: الآية:٨٢.
(٣) محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر ت (٣١٠ هـ) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن - دار الفكر للطباعة — جـ٢٩ - ص٣٠٧. وانظر على سبيل - المثال:٢/٣/٤٨٣،٣/٢٠٨/٥٤٠. والطبري، هو: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ، المفسر، الإمام. ولد في آمل طبرستان، (٢٢٤هـ-٨٣٩م - ٣١٠هـ - ٩٢٣م). واستوطن بغداد، وتوفي بها. وعرض عليه القضاء، فامتنع، والمظالم، فأبى.=

وهنا يربط الطبري بين قوله –تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾[1]، والآية التي تسبقها، حيث يذكر ألفاظ الآية السابقة بعينها دون معناها، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾، وهذا مما يقبله العقل والمنطق السليم.

فما أكثر المناسبات التي يمكن للعقل السليم أن يقبلها، وتطرب لها أذن السامع؛ وعليه، فإذا قامت الأمة برفض أي علم لبعض الأخطاء التي وقعت من بعض من كَتَبَت فيه لَمَا بقي لنا علم، حتى إن تفسير الشوكاني نفسه سنقوم برفضه لما فيه من الروايات الضعيفة، والموضوعة، التي يُوردها دون أن ينبه عليها.

مما سبق يمكن القول بأن:

١. موقف الإمام الشوكاني فيه مبالغة قد تبعد عن الصواب، ويُؤيد ذلك عناية جل المفسرين بذكر المناسبات في تفاسيرهم، وإن لم يذكروا لفظة مناسبة بعينها.

٢. إذا كان القرآن الكريم قد جاء ترتيبه توقيفيًا من عند الله –تعالى، وهو بذلك على غير ترتيب النزول، فإنه ولا بد أن يكون لهذا الترتيب التوقيفي إعجازٌ كبيرٌ، وحكمٌ بالغةٌ، وإلا سيكون ذلك الترتيب ضربًا من العبث.

٣. ينبغي للباحثين في علم مناسبات الآيات القرآنية، أن يكون بحثهم في إطار السياق العام للآيات؛ حتى يخلو من التعسف والتكلف في تأويلها، وإلا كان ذلك تكلفًا، وقولًا على الله بغير علم.

له (أخبار الرسل والملوك)، و(جامع البيان في تفسير القرآن)، يعرف بتفسير الطبري انظر: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، أبو العباس– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – تحقيق: إحسان عباس – دار صادر – بيروت– جـ٤، ص١٩١،١٩٢، الزركلي – الأعلام: ٦٩/٦.

(١) سورة النساء: الآية: ٨١.

المبحث الثاني

الإمام رشيد رضا وكتابه المنار

المطلب الأول: التعريف بالإمام وكتابه:

أولًا: التعريف بالإمام:

يُعدّ الإمام رشيد رضا أحد رجالات التجديد والإصلاح البارزين في هذا العصر، فهو من أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده، وإن اختلف معه في بعض الأمور، أو ابتعد عن منهجه في التفسير بعض الشيء، وذلك بعد وفاته، إلا أنه ظل وفيًا له، منافحًا ومدافعًا عنه.

اسمه: هو العلامةُ السلفي محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين ابن السيد بهاء الدين بن السيد بن علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، والحسيني النسب. ولد في ١٢٨٢هـ، بقريةِ القلمون[١].

يقول رشيدُ رضا: "إِنَّ لي في هذهِ الدنيا وَطَنَينِ: وطن النشأَةِ والتربيةِ، وهو سوريا، فإِنَني وُلدتُ في قريةِ القلمون المجاورةِ لطرابلس الشام، في ساحلِ لبنانَ، وتعلمتُ في طرابلس، ووطن العملِ، وهو مصر، التي أَقمتُ فيها إِحدى عشرةَ سنةً أَدعو إِلى الإِصلاحِ الدينِي، والاجتماعيِ، والسياسيِ، وأَقرأُ الدروسَ، وأَعملُ في بعضِ الجمعياتِ"[٢].

شيوخه: يقول رشيدُ رضا: إنَ عِلمَه إِلهَامِي من اللهِ -عزَ وجلَ، وليسَ بتوجيهٍ من أبيهِ أو شيخٍ من الشيوخِ، إذ يقول: "إِذا كانَ بعضُ ما يُكتَسَبُ عَادَةً بإِرشادِ المربِي والمعلمِ فإِنهُ قد كانَ عندي أشبهُ بالوحي الإِلهامي..."[٣]، كما يُؤكد على أنه قد أخذَ عن شيوخهِ الكثيرَ من العلمِ، والأدبِ، والزهدِ، واستفادَ منهم، كما يستفيدُ التلميذ من أُستاذِهِ.

---

(١) انظر: الزركلي - الأعلام – جـ٦ - ص ١٢٦.

(٢) مجلة المنار – مج: ١١ – ٨٨١/١٢.

(٣) المصدر السابق – مج: ٣٣ – ٥٣٦/٧.

آثاره: خَلَّفَ رشيد رضا عددًا كبيرًا من المؤلفاتِ العلمية، في مُختَلَفِ نَوَاحِي المعرفة، وقد ذكرَها في مجلة (المنار). منها مؤلفات في التفسيرِ، وعلومِ القرآنِ، وأصولِ الدينِ، والفقهِ، والتاريخِ، والإصلاحِ، وغير ذلك.

وفاته: أُصيبَ العالم الإسلامي بِفَقدِ عالمٍ جليل ورجلٍ عظيمٍ من رجالات التجديد والإصلاحِ الإسلاميِ، وكانت وفاته فجأة، عام ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م. ودُفن بالقاهرة(١).

ثانيًا: التعريف بتفسير المنار:

بدأت حكاية كتابة تفسير المنار بمجرد اقتراح مقدم من الإمام رشيد رضا لأستاذه الإمام محمد عبده بكتابة تفسير يقتصر فيه على حاجة العصر، مع بيان لما أهمله المفسرون في تفاسيرهم، غير أنَّ هذا الاقتراح قوبل بالرفض من الأستاذ الإمام؛ متعللًا بقوله: "الكتب لا تفيد القلوب العُمي...، إذا وصل لأيدي هؤلاء العلماء كتابٌ فيه غير ما يعلمون، لا يعقلون المراد منه، وإذا عقلوا منه شيئًا يردونه، ولا يقبلونه، وإذا قبلوه حرَّفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم، كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التي نريد بيان معناها الصحيح، وما تُفيده"(٢).

وقد دافع رشيد رضا عن اقتراحه، بقوله: "إِنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِمَّنْ يُقدِرُ كَلَامَ الْإِصْلَاحِ قَدْرَهُ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلِينَ، وَسَيَزِيدُ عَدَدُهُمْ يَوْمًا فَيَوْمًا، فَالْكِتَابَةُ تَكُونُ مُرْشِدًا لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ. وَإِنَّ الْكَلَامَ الْحَقَّ -وَإِنْ قَلَّ الْآخِذُ بِهِ وَالْعَارِفُ بِشَأْنِهِ- لَا بُدَّ أَنْ يُحْفَظَ وَيَنْمُوَ بِمُصَادَفَةِ الْمَبَاءَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ"(٣).

والملاحظ أن مشروع كتابة تفسير المنار لم يكن منذ اللحظة الأولى استجابة للآمر العلمي عند صاحبيه، وإنما كان استجابةً معرفية لمشروع إصلاحي، ولَمْ يزَلْ السيد رشيد رضا بِأستاذه حَتَّى أَقْنَعه بِقِرَاءَةِ التَّفْسِير؛ فَاقْتَنَعَ، وَبَدَأَ بِالدَّرْسِ فِي

(١) انظر: الزركلي - الأعلام – ١٢٦/٦.

(٢) رشيد رضا – المنار – ١٣/١.

(٣) المصدر السابق، ١٤/١. والْمَبَاءَة هي: منزل القوم في كل موضع، أو المرْجِعُ.

الْأَزْهَرِ الشريف، وكان منهج الإمام محمد عبده هو التَوَسُّع فِيمَا أَغْفَلَهُ أَوْ قَصَّرَ فِيهِ الْمُفَسِّرُونَ، وَالاختصار فِيمَا بَرَزُوا فِيهِ مِنْ مَبَاحِث الْأَلْفَاظِ وَالْإِعْرَابِ وَنُكَتِ الْبَلَاغَةِ... (١).

وكان رشيد رضا: يكتب فِي أَثْنَاءِ إِلْقَاءِ دَرْسِ أستاذه مُذَكِّرَاتٍ يودِعُهَا أَهَمَّ مَا يقوله، وَيحْفَظُ مَا يكْتُبُ لِأَجْلِ أَنْ يُبَيِّضَهُ، وَيمُدَّهُ بِكُلِّ مَا يتَذَكَّرُهُ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ.

يقول رشيد رضا: "وَلَا أَذْكُرُ أَنَّهُ انْتَقَدَ شَيْئًا مِمَّا لَمْ يَرَهُ قَبْلَ الطَّبْعِ، بَلْ كَانَ رَاضِيًا بِالْمَكْتُوبِ، بَلْ مُعْجَبًا بِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كُلُّهُ نَقْلًا عَنْهُ وَمَعْزُوًّا إِلَيْهِ، بَلْ كَانَ تَفْسِيرًا لِلْكَاتِبِ مِنْ إِنْشَائِهِ...."(٢).

وبعد وفاة الإمام محمد عبده سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) استقلَّ رشيد رضا بكتابة التفسير، وكان ينوي القيام بتفسيرٍ كامل للقرآن الكريم، ويظهر هذا جليًا من كلامه في نهاية معظم مجلدات تفسيره، وذلك عندما كان يطلب من الله أن يعينه على إتمام هذا التفسير، لكن قضاء الله –تعالى– حال دون تنفيذ ما كان ينوي ويضمر، إذ توفاه الله –تعالى– بعد فراغه من تفسير سورة يوسف.

ثالثًا: نشاطه في التجديد والإصلاح:

اتخذ رشيدُ رضا قريته قبلة لدعوتهِ الإصلاحية، فكانَ يُلقي في مسجدِها الدروسَ، ويبسطُ لهم المسائل، ويحاربُ البدعَ، ويذهبُ إلى الناسِ في تجمعاتِهم التي اعتادوا الجلوسَ فيها؛ لِيَعِظهم، ويحثهم على أداء الصلاةِ، وقد أثمرت هذهِ السياسةُ المبتكرةُ؛ فأقبلَ كثيرٌ منهم على أداء الفروض(٣).

في تلك الفترةِ التي كانَ رشيدُ رضا يهتمُ فيها بالدعوة إلى الإصلاحِ في قريتهِ وصلت بعضُ أعداد جريدة العروة الوثقى إلى رشيدِ رضا، التي أصدرها السَيد جَمَال الدينِ الأَفغانِي والأُستاذ الإمام محمد عبده بعد نفيهما من مصرَ، إثر انطلاق حركة

(١) انظر: رشيد رضا – المنار – ١٤/١.

(٢) المصدر السابق، ١٥/١.

(٣) مجلة المنار – مج: ٣٥ – ١٥٣/٢.

الإصلاح الكُبرى، والتي دَوّى صِيتُهَا بِقِيَادَةِ العالمين الجليلين: جَمَال الدينِ الأَفغانِي، والأُستاذ الإمام محمد عبده.

هذا، ولما ملكت دعوةُ الأفغاني ومحمد عبده قلب رشيد رضا، فكانت ضالته المنشودة؛ قرر أن يجعلَ الصحافةَ ميدانًا لدعوتهِ التجديدية الإصلاحية، فبدأ بإقناع أستاذه محمد عبده بإنشاء صحيفة تهدف إلى تربية النشء، وتقاوم الجهل والخرافات، وتؤسس لمفهوم أن الدين يتفقُ مع العقل والعلم، وقد لاقى هذا الاقتراح قبولًا من الإمام محمد عبده؛ فأنشئت الصحيفة تحت اسم، "مجلةُ المنارِ"، وصدرَ العددُ الأول منها في ٢٢ شوال ١٣١٥هـ -١٥ مارس ١٨٩٨م.

وقد كان رشيد رضا يحرصُ على عرضِ كل ما يكتبهُ قبلَ نشرهِ على أستاذه، ولم تمض بضع سنواتٍ على صدور المجلة حتى ذاع صِيتهَا، وانتشر في أرجاء العالمِ الإسلاميِ وغيرِهِ، وأصبحت المنارُ المجلةُ الإسلامية الأُولى في العالمِ الإسلاميِ[(١)].

المطلب الثاني: عناية رشيد رضا بالمناسبات القرآنية:

عني رشيد رضا بالمناسبات القرآنية عناية واضحة حتى صارت مَعْلمًا من معالم تفسيره، كما أنها لفتت انتباه الباحثين في علوم القرآن والتفسير، فأشاروا إلى اهتمامه بهذا العلم.

كما أن الناظر المدقق في تفسير المنار يلحظ عناية صاحبيه بعلم المناسبات بين الآيات، وولعهما به جاء من خلال إظهار الترابط بينها، ولعل ذلك يُلْمَحُ من مقدمة تفسير المنار من قول رشيد رضا: "وَكُنْتُ أَذْكُرُ كَثِيرًا مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا حَالَةُ الْعَصْرِ فَمَا اهْتَمَّ لَهَا أَحَدٌ - فِيمَا أَعْلَمُ - مَعَ أَنَّهَا كَانَ مِنْ حَقِّهَا أَنْ تُكْتَبَ"[(٢)].

(١) انظر: رشيد رضا – المنار – ١٤/١.

(٢) انظر: المصدر السابق ، ١٣/١.

واضح من كلام رشيد رضا أن تفسير المنار جاء ذكر المناسبات فيه ليس من قبيل المناسبة بين الآية والآية فحسب، وإنما جاء لربط مناسبة الآيات القرآنية مع الواقع المعاش، أو بين الآية ومدى مناسبتها وموافقتها، أو مخالفتها للواقع، وذلك واضح من كلام رشيد رضا: "كنت أَذْكُرُ كَثِيرًا مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا حَالَةُ الْعَصْرِ"، ولعل ذلك المنهج يرجع إلى أن مشروع كتابة تفسير "المنار" كان منذ اللحظة الأولى استجابةً معرفية لمشروع تجديدي إصلاحي.

وفي اعتقادي أن الاهتمام بهذا النوع من المناسبات أوقع في النفس، فهو يربط الآية بالواقع الحياتي، الذي هو الأساس المستهدف للإصلاح، والفائدة المتحققة من ذكر كل المناسبات، بل أداء كل الطاعات، قال -تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[2].

فما أقيمت الصلاة إلا لذكر الله -تعالى، كما أن الفائدة المتحققة منها هي نهيها عن الفحشاء والمنكر، فإن ذهبنا كي نقيم المناسبة بين ذكر هذه الآية وبين وواقع الأمة الحياتي، ووجدنا أن الصلاة خلت من الذكر الحقيقي لله -تعالى، وإن أقيمت ولم تنه عن الفحشاء والمنكر؛ فهناك خلل ما، يجب الوقوف عنده؛ لمحاولة إصلاحه.

فرشيد رضا ومن قبله أستاذه الإمام محمد عبده كانا مولعين ولعًا شديدًا بذكر المناسبات بين الآيات، والكشف عن أسرارها؛ يقول الْإِمَامُ محمد عبده، وهو يثني على أسلوب القرآن، رادًا على من يعيبون أسلوبه في عَدَم تَرْتِيبِ قَصَصِه، وقد ذكروا قصة موسى، بقولهم: إِنَّ الِاسْتِسْقَاءَ وَضَرْبَ الْحَجَرِ كَانَ قَبْلَ التِّيهِ وَقَبْلَ الْأَمْرِ بِدُخُولِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ، فَذُكِرَ هُنَا بَعْدَ تِلْكَ الْوَقَائِعِ.

(١) سورة طه: جزء من الآية: ١٤.

(٢) سورة العنكبوت: جزء من الآية: ٤٥.

يقول الأستاذ الإمام: "وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ يُفْهَمُ مِمَّا قُلْنَاهُ مِرَارًا فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا التَّارِيخَ وَسَرْدَ الْوَقَائِعِ مُرَتَّبَةً بِحَسْبِ أَزْمِنَةِ وُقُوعِهَا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا الِاعْتِبَارُ وَالْعِظَةُ، بِبَيَانِ النِّعَمِ مُتَّصِلَةً بِأَسْبَابِهَا لِتُطْلَبَ بِهَا، وَبَيَانِ النِّقَمِ بِعِلَلِهَا لِتُتَّقَى مِنْ جِهَتِهَا"(١).

يقول رشيد رضا: "وَالْوَجْهُ فِي التَّنَاسُبِ عِنْدِي أَنْ يُبْنَى عَلَى أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ الَّذِي امْتَازَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ، مِنْ حَيْثُ كَوْنُه مَثَانِيَ لِلْهِدَايَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ، وَالْعِبْرَةِ.."(٢).

وعليه، فإن تفسير المنار هو تفسير للمناسبات من الناحية العملية التطبيقية، خلافًا للتفاسير الأخرى التي تعتمد شرح النص أو ذكر المناسبة بين السابق واللاحق فقط، فهي تفاسير قولية، شارحة للنصوص القرآنية.

وولع رشيد رضا بالمناسبات القرآنية نتج عنه ثلاث ظواهر تفسيرية متعلقة بعلم المناسبة وهي:

١. كثرة ثنائه على أسلوب القرآن في النظم والترتيب.

٢. بدؤه بذكر مناسبة الآية عند القيام بتفسيرها.

٣. اجتهاده في استنباط وجوه المناسبات بين الآيات والسور.

أولا: كثرة ثنائه على أسلوب القرآن في النظم والترتيب:

ومما يدل على عناية رشيد رضا بعلم المناسبات الثناء الدائم على الترتيب والنظم القرآني؛ فهو يصفه بأنه من أظهر وجوه الإعجاز القرآني، يقول: "وَلَعَمْرِي إِنَّ وُجُوهَ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ دَقَائِقِ الْمُنَاسَبَاتِ لَهِيَ ضَرْبٌ مِنْ

(١) رشيد رضا – المنار- ١/٢٧١.

(٢) المصدر السابق، ٦/ ٣٠٥.

ضُرُوبِ الْبَلَاغَةِ، وَفَنٌّ مِنْ فُنُونِ الْإِعْجَازِ، إِذَا أَمْكَنَ لِلْبَشَرِ الْإِشْرَافُ عَلَيْهِ فَلَا يُمْكِنُهُمُ الْبُلُوغُ إِلَيْهِ"(١).

ففي تفسير قوله -تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(٢) يقول: "فَهَذِهِ آيَةٌ مِنْ أَظْهَرِ آيَاتِهِ، وَهِيَ عَجْزُكُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ مِنْ رَجُلٍ أُمِّيٍّ مِثْلِ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ، وَهُوَ عَبْدُنَا وَرَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ"(٣).

ولعل ما يؤكد عناية رشيد رضا بذكر المناسبة القرآنية أنه لا يكاد ينتهي من ذكر المناسبة حتى يقوم بتذييلها بجملة من الثناء على ترتيب القرآن الكريم ونظمه، وإليك بعض عباراته في ذلك:

١. يقول رشيد رضا بعد ذكره للمناسبة بين الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا في قوله -تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾(٤): "وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْبَيَانِ مِمَّا امْتَازَ بِهِ الْقُرْآنُ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ، فَإِنَّكَ لَتَرَى فِيهِ فُنُونًا مِنَ الِاسْتِدْرَاكِ وَالِاحْتِرَاسِ، قَدْ جَاءَتْ فِي خِلَالِ الْقَصَصِ وَسِيَاقِ الْأَحْكَامِ، تَقْرَأُ الْآيَةَ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، أَوْ عِظَةٍ مِنَ الْمَوَاعِظِ، أَوْ وَاقِعَةٍ تَارِيخِيَّةٍ فِيهَا عِبْرَةٌ مِنَ الْعِبَرِ، فَتَرَاهَا مُسْتَقِلَّةً بِالْبَيَانِ، وَلَكِنَّهَا بِاتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا قَدْ أَزَالَتْ وَهْمًا أَوْ تَمَّمَتْ حُكْمًا"(٥).

٢. ويؤكد عنايته بعلم المناسبات حينما يُقدم الثناء على أسلوب القرآن بين يدي المناسبة، ويظهر ذلك عند ذكره للمناسبة بين أجزاء سورة المائدة بقوله: "فَمَجْمُوعُ آيَاتِ السُّورَةِ فِي هَذَيْنِ الْمَوْضُوعَيْنِ، وَإِنَّمَا لَمْ تُجْعَلْ آيَاتُ الْأَحْكَامِ كُلُّهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَتُجْعَلُ الْآيَاتُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي بَاقِيهَا لِمَا بَيَّنَّاهُ

(١) رشيد رضا – المنار- ١/٢٠٦.
(٢) سورة البقرة: جزء من الآية: ٢٣.
(٣) رشيد رضا – المنار- ١/١٥٩.
(٤) سورة البقرة: الآية: ١١٥.
(٥) رشيد رضا – المنار- ١/٣٥٩.

غَيْرَ مَرَّةٍ فِي حِكْمَةِ مَزْجِ الْمَسَائِلِ وَالْمَوْضُوعَاتِ... عَلَى أَنَّ فِي نَظْمِهِ وَتَرْتِيبِ آيِهِ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْمَسَائِلِ الْمُخْتَلِفَةِ مَا يُدْهِشُ أَصْحَابَ الْأَفْهَامِ الدَّقِيقَةِ بِحُسْنِهِ وَتَنَاسُقِهِ"(١).

وكان رشيد رضا يبدأ تفسير الآية – في غالب الأحيان – من خلال ربطه بين سياق الآية وما قبلها وما بعدها، حتى لكأنك تشعر بأن الآيات وكأنها حبات عقد متتابعة بعضها في إثر بعض، ثم يذكر بعد ذلك أقوال بعض علماء المناسبة، كالإمام الرازي، أو الألوسي، وغيرهما(٢).

ثانيا: بدؤه بذكر مناسبة الآية عند القيام بتفسيرها:

ولعل ما يدل كذلك على عناية رشيد رضا بعلم المناسبات القرآنية هو بدؤه بذكر مناسبة الآية عند القيام بتفسيرها.

ففي تفسير قوله –تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾(٣) يقول رشيد رضا في بداية كلامه في تفسير هذه الآية: "فَالْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؛ وَلِذَلِكَ عَطَفَ الْجُمْلَةَ عَلَى مَا قَبْلَهَا؛ لِأَنَّهَا مُتَمِّمَةٌ لِفَائِدَتِهَا؛ إِذْ لَا بُدَّ بَعْدَ بَيَانِ جَزَاءِ الْكَافِرِينَ مِنْ بَيَانِ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ"(٤).

(١) رشيد رضا – المنار– ١٨/٧. فقد بدأت هَذِهِ السُّورَةَ ببعض أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالنُّسُكِ، وقد كان من بينها حِلُّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، التَّزَوُّجُ مِنْهُمْ، الطَّهَارَةَ، الْعَدْلُ، ثُمَّ دار سِيَاق طَوِيل فِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُحَاجَّتِهِمْ، فَكَانَ أَوْفَى وَأَتَمَّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وَقد تَخَلَّلَهُ القَلِيلُ مِنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ، ثم العود إِلَى أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالنُّسُكِ الَّتِي بُدِئَتْ بِهَا السُّورَةُ ، ثم إِلَى مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

(٢) انظر: رشيد رضا – المنار– ٨٤/٧.

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥).

(٤) رشيد رضا – المنار– ١٦٢/٢.

ثالثا: اجتهاده في استنباط وجوه المناسبات بين الآيات والسور:

ومما يدل كذلك على عناية رشيد رضا بعلم المناسبات القرآنية أنه لا يكتفي بذكر وجه واحد للمناسبة بين الآيات والسور، وإنما يجتهد في استنباط وجوه عديدة للربط بينها.

ففي الحديث عن وجوه الاتصال بين سورة آل عمران والبقرة، يقول: "الِاتِّصَالُ بَيْنَ هَذِهِ السُّورَةِ، وَمَا قَبْلَهَا، مِنْ وُجُوهٍ:

فَمِنْهَا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا بُدِئَ بِذِكْرِ الْكِتَابِ وَشَأْنِ النَّاسِ فِي الِاهْتِدَاءِ، فَفِي السُّورَةِ الْأُولَى ذَكَرَ أَصْنَافَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ، وَالْمُنَاسِبُ فِي ذَلِكَ التَّقْدِيمُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ فِي أَصْلِ الدَّعْوَةِ، وَفِي الثَّانِيَةِ ذكر الزَّائِغِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَيَقُولُونَ: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَالْمُنَاسِبُ فِيهِ التَّأْخِيرُ؛ لِأَنَّهُ فِيمَا وَقَعَ بَعْدَ انْتِشَارِ الدَّعْوَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَدْ حَاجَّ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّ الْأُولَى أَفَاضَتْ فِي مُحَاجَّةِ الْيَهُودِ، وَاخْتَصَرَتْ فِي مُحَاجَّةِ النَّصَارَى، وَالثَّانِيَةَ بِالْعَكْسِ، وَالنَّصَارَى مُتَأَخِّرُونَ عَنِ الْيَهُودِ فِي الْوُجُودِ، وَفِي الْخِطَابِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ الْإِفَاضَةُ فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي السُّورَةِ الثَّانِيَةِ.

وَمِنْهَا: مَا فِي الْأُولَى مِنَ التَّذْكِيرِ بِخَلْقِ آدَمَ، وَفِي الثَّانِيَةِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِخَلْقِ عِيسَى، وَتَشْبِيهِ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ فِي كَوْنِهِ جَاءَ بَدِيعًا عَلَى غَيْرِ سُنَّةٍ سَابِقَةٍ فِي الْخَلْقِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يُذْكَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي السُّورَةِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَحْكَامًا مُشْتَرَكَةً كَأَحْكَامِ الْقِتَالِ، وَمَنْ قَابَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ رَأَى أَنَّ مَا فِي الْأُولَى أَحَقُّ بِالتَّقْدِيمِ، وَمَا فِي الثَّانِيَةِ أَجْدَرُ بِالتَّأْخِيرِ.

وَمِنْهَا: الدُّعَاءُ فِي آخِرِ كُلٍّ مِنْهُمَا، فَالدُّعَاءُ فِي الْأُولَى يُنَاسِبُ بَدْءَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ، وَطَلَبِ النَّصْرِ عَلَى جَاحِدِي الدَّعْوَةِ وَمُحَارِبِي

أَهْلِهَا، وَفِي الثَّانِيَةِ يُنَاسِبُ مَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَلَامَ فِي قَبُولِ الدَّعْوَةِ وَطَلَبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْهَا: مَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ خَتْمِ الثَّانِيَةِ بِمَا يُنَاسِبُ بَدْءَ الْأُولَى؛ كَأَنَّهَا مُتَمِّمَةٌ لَهَا: ذَلِكَ أَنَّهُ بَدَأَ الْأُولَى بِإِثْبَاتِ الْفَلَاحِ لِلْمُتَّقِينَ، وَخَتَمَ الثَّانِيَةَ بِقَوْلِهِ: (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)"[(١)].

المطلب الثالث: معالم البحث في المناسبات القرآنية:

بالنظرة المتأنية في تفسير المنار تبيَّن أن اهتمام صاحبه بعلم المناسبات ينطلق من معالم وملامح كانت دافعًا لرشيد رضا للبحث عن أسرار الترتيب والنظم القرآني، ولعل من هذه المعالم[(٢)]:

١. **توقيف النظم القرآني.**
٢. **دوران سور القرآن حول المقصود الأعظم.**
٣. **الطريقة المعهودة للقرآن في عرض القضايا.**

أولا: توقيف النظم القرآني

تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن في قول -تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[(٣)]، ثم تحداهم في أن يأتوا بعشر سور من مثله، في قول -تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ

(١) انظر: رشيد رضا – المنار- ١٢٧/٣.

(٢) المعالم: جمع معلم، وهو في اللغة: الأثر الذي يُستدل به على الطريق، ومْعَلَم الطريق: دلالته، والمعْلَم: ما جُعل علامةً وعَلَمًا للطريق والحدود، مثل: أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه". "ومعلم الطريق دلالته وكذلك معلم الدين على المثل، ومعلم كل شيء مظنته، وفلان معلم للخير كذلك. انظر: الزَّبيدي – تاج العروس – فصل السين، ابن منظور – لسان العرب – باب(علم).، ابن سيده – المحكم والمحيط الأعظم – باب مقلوبة (ع م ل).

(٣) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٣.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[1]. وأخيرا تحداهم بأن يأتوا بمثله في قول -تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾[2]، وعليه، فإنه إذا كان التحدي قد وقع في الآيات والسور والكل على حد سواء؛ فلابد وأن يكون الترتيب والنظم في كل ذلك — الآيات والسور- إنما هو بتوقيف من الله -تعالى.

وفي ظني أن القرآن على هذه الصورة الحالية بترتيبه ونظمه إنما هو بتوقيف من الله —تعالى؛ إذ لو لم يكن الترتيب موقوفًا من الله، خلافًا لمن قال بأنه نُظم على هذا الترتيب في أيام عثمان ﷺ؛ لَمَا صح أن يُتَحدى به مرة بسورة، ومرة بعشر، ومرة بالقرآن كله. إذ لو كان هذا الترتيب من البشر لَمَا وُجد هذا التناسق وذاك الترتيب المتقن العجيب. لهذا كان للترتيب حكمة ينبغي على الراسخين في العلم بيانها وكشفها؛ امتثالًا لقوله -تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾[3].

ثانيا: دوران سور القرآن حول المقصود الأعظم:

السورة هي طائفة من جمل القرآن لها بداية ونهاية، والناظر إلى إحدى سور القرآن يجد أنها -وإن تعددت آياتها، وتنوعت من حيث أماكن نزولها بين مكي ومدني؛ فإن ثمة رابطًا يربط السورة من مطلعها إلى منتهاها، فالقارئ للسورة يسشعر وكأنها تعالج قضية واحدة، غير أنها مشتملة على عدة جمل بعضها متعلق ببعض، ولا مفر للمتأمل من أن يرد الكلام إلى بدايته، وآخره إلى أوله، وعندها يستطيع القارئ أن يفهم مراد الشارع من كلامه، أما إذا فرق نظره فإنه لن يتوصل إلى مراد الشارع الحكيم من كلامه.

---

(١) سورة هود: جزء من الآية: ١٣.

(٢) سورة الطور: الآية: ٣٣، ٣٤.

(٣) سورة النساء: الآية: ٨٢.

هذا الترابط العجيب لأجزاء السورة القرآنية يستوي فيه ما نزل من سور القرآن مفرقًا، وما نزل جملة واحدة، فالقارئ لا يستطيع أن يُفّرق بين سورة نزلت منجمة، كسورة البقرة، وبين سورة نزلت جملة واحدة، كسورة الأنعام، من حيث الترابط الداخلي، والانسجام التام بين أجزاء إحدى السورتين، فهناك وحدة موضوعية لكل سورة من سور القرآن، وإلا فلو كان القرآن مختلط الموضوعات بلا رابطة لما كان لإلحاق آية مكية بسورة مدنية معنى يذكر، ولكان الأولى أن تُوضع الآيات حيث نزلت، في أية سورة متوافقة معها في الزمان والمكان.

ورشيد رضا يرى أن الذي يربط بين أجزاء السورة القرآنية من بدايتها إلى منتهاها هو دورانها حول المقصود الأعظم للقرآن، وهذا المقصود يتمثل في تقرير أربعة أصول – حسب وجهة نظره، هي: الْإِلَهِيَّات، وَالنُّبُوَّات، وَالْبَعْث، وَالْجَزَاء[(١)].

فالسورة القرآنية عنده تسير في اتجاه كي تُبيّن هذه المقاصد الأربعة، وتُبرهن على صدقها وصحتها، ولذلك فهو عندما يربط بين أجزاء السورة يجعل اجتماع هذه المقاصد أمرًا ضروريًا داخل السورة نفسها، ثم ينطلق منه لبيان وجه المناسبات بين أجزائها.

يقول رشيد رضا في وجوه المناسبات بين السور في تقرير الأصول الأربعة: "هَذَا مَا أَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ التَّنَاسُبِ فِي الْكُلِّيَّاتِ بَيْنَ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي شَرَعْتُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مُطْلَقًا"[(٢)].

ثالثا: الطريقة المعهودة للقرآن في عرض القضايا:

الأساس الثالث الذي اعتمد عليه رشيد رضا في بيان المناسبات بين الآيات والسور هي تلك الطريقة التي يعتمد عليها القرآن في عرض قضاياه وموضوعاته، والتي يُسميها: بـ "أسلوب القرآن" وطريقته: أَن الله يَمْزِجُ فُنُونَ الْكَلَامِ، وَيُنَظِّمُ

(١) انظر: رشيد رضا- المنار – ٧/ ٢٤١، ١٢/ ٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ، ٢٤١/٧.

مَقَاصِدَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَتَبَايُنِ مَوْضُوعَاتِهَا، مَزْجًا مُتَلَائِمًا، وَنَظْمًا مُتَنَاسِبًا مُتَنَاسِقًا، مُوَافِقًا لِلذَّوْقِ السَّلِيمِ، مُطَابِقًا لِنُكَتِ الْبَلَاغَةِ..."[1].

مما سبق يتضح لنا أن رشيد رضا لم يكن ليعتني بذكر المناسبات في القرآن لمجرد شغفه بهذا العلم، وإنما لكونه علمًا مهمًا يُضِيف وجهًا جديدًا إلى إعجاز القرآن، كما أنه يقي من مزالق التعسف والتكلف.

(١) انظر: رشيد رضا- المنار – ٢٩٨/٩.

المبحث الثالث

أنواع المناسبات في تفسير المنار

مر بنا الحديث في المقدمة أن رشيد رضا يُعنى في تفسيره بإيجاد المناسبات عناية بالغة، حتى ليمكننا استخلاص كتاب في مناسبات القرآن من هذا التفسير، وحيث إن تفسير المنار يزخر بجميع أنواع المناسبات القرآنية، فقد وجدناه يُعنى بما يلي:

● **أولًا: المناسبة بين أجزاء الآية:**

قد تأتي الآية، فتأمر بفعل شيء ما، أو تنهى عنه، فتحتاج إلى إضافات لبيان هذا الأمر، وقد تجتمع في الآية الواحدة عدة مضامين؛ فتحتاج إلى بيان الحكمة من اجتماعها في الآية.

مثال ١: قوله -تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾[(١)].

ووجه مناسبة أجزاء الآية السابقة لبعضها هو أن اليهود والنصارى قالوا للرسول ﷺ وأصحابه: كونوا يهودًا تهتدوا، وقالت النصارى: بل كونوا نصارى تهتدوا؛ فجاء الجزء الثاني من الآية في صورة رد على الدعوة المقدمة من الفريقين؛ لمناسبة الدعوة والرد عليها، بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فجاءت (بل) لتعمل على إضراب وإبطال ما سبق من دعوة الفريقين.

يعني: بل لا نتبع، ولا نكون على ملتهم، بل على ملة إبراهيم عليه السلام، الذي لم يك من المشركين؛ وملة إبراهيم هي التوحيد، وكأن الله -تعالى- يريد أن يقول لهم، هَذِهِ هِيَ مِلَّة أَبِيكم إِبْرَاهِيم عليه السلام الَّذِي تَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ، فكيف ترغبون عن ملته، وفي ذلك بيان لاتفاق الشرائع السماوية في أصل واحد، وهو توحيد الله

(١) سورة البقرة: الآية: ١٣٥.

وإفراده بالعبادة؛ لأنه دين واحد، لا أديان متفرقة، ألم يقل الله -تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

فالدعوة إلى الحنفية السمحة، جاءت على لسان أول نبي من أنبياء الله تعالى، وهو نوح عليه السلام، فقد دعا قومه إليها، بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾[2]، وهي أيضًا ملة نبي الله إبراهيم عليه السلام، قال -تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ...﴾[3]، وهي الدعوة نفسها التي استنصر بها نبي الله عيسى عليه السلام قومه، حينما أحس منهم الكفر، فقال لهم: ﴿... مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

وفي ذلك إشعار للأمة الإسلامية بهذه الوحدة، ودعوة لأبنائها بألا يقصروا نظرهم على ما يمتاز به كل فريق أو حزب على غيره، في الفروع والجزيئات، الَّتِي أضافوها من واقع فهمهم لأجزاء الشريعة، فلو فعلوا ذلك لبعد كل فريق عن أخيه أشد البعد، ولأصبح الدين الواحد كفرًا وإيمانًا، كُل فريق فرح بما عنده، ناسبًا الإيمان لنفسه، راميًا الكفر والفسوق غيره ، رغم أن نبيهم ﷺ واحد، ودينهم واحد، وكتابهم واحد.

وكأن الآية الكريمة تُصور لنا حال الأمة الإسلامية، في تشتتها، وتشرذمها، وقد ظهرت على الساحة فرق وجماعات، فرقوا دينهم شيعًا، فجعلوا الناس أصنافًا شتى، الملتزم، وغير الملتزم، الفاسق، وغير الفاسق، فجعلوا بذلك الدين الواحد كفرًا وإيمانًا، وفسوقًا، محتكرين بذلك فهم الدين، فرحين بهذا العمل، كيف ذلك!

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٩.

(٢) سورة يونس: الآية: ٧٢.

(٣) سورة الحج: جزء من الآية: ٧٨.

(٤) سورة آل عمران: جزء من الآية: ٥٢.

والدين واحد، والكتاب واحد، والنبي ﷺ واحد، فمن أين جاءوا بهذا الدين الجديد؟

يقول رشيد رضا: "وَانْتَقَلَ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ إِلَى بَيَانِ وَحْدَةِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَاتِّفَاقِ النَّبِيِّينَ فِي جَوْهَرِهِ، وَبَيَانِ جَهْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ، وَقِصَرِ نَظَرِهِمْ عَلَى مَا يَمْتَازُ بِهِ كُلُّ دِينٍ مِنَ الْفُرُوعِ وَالْجُزْئِيَّاتِ..."(١).

مثال ٢: قوله –تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾(٢).

لا يخفى ما في الآيات الثلاث السابقة من تناسب؛ فقد ناسب ذكر العذاب العظيم على أولئك الذين يسارعون في الكفر، فمن شأن عظائم الأمور المسارعة إليها، كما ناسب ذكر أليم كل من يشتري الكفر؛ لأن المشتري الذي قد غُبن في شرائه يحصل له الكثير من الألم، أما لفظ المهين فهو ينطبق على كل من تمادى في الإثم، فحاله في ذلك الشعور بالذل والمهانة؛ الأمر الذي يحمله على طلب العز والكرامة.

---

(١) رشيد رضا – المنار – ١/ ٣٩٥. ووجه مناسبة أجزاء الآية لبعضها عند الإمام البقاعي جاء من خلال ذكره لقول الإمام الحرالي، الذي يقول فيه: "ففيه كمال تسنن محمد ﷺ في ملته بملة إبراهيم عليه السلام الذي هو الأول لمناسبة ما بين الأول والآخر". ومناسبة ما بين الأول والآخر هنا، هي الاتفاق في دعوة كليهما إلى التوحيد، وعليه فقد جاءت ألفاظ رشيد رضا أكمل في التعبير عن المناسبة في الآية؛ حيث فصل فيها بذكر وجه الاتفاق بين النبيين، مبينًا سبب دعوة أهل الكتاب للرسول ﷺ إلى ملتهم بأنه الجهل بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ، وقصر فهمها على مَا يَمْتَازُ بِهِ كُلُّ دِينٍ مِنَ الْفُرُوعِ وَالْجُزْئِيَّاتِ. انظر: البقاعي– نظم الدرر – ١/ ٢٥٠.

(٢) سورة آل عمران: الآيات: ١٧٦– ١٧٨.

يقول رشيد رضا: "وَفِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ التَّفَنُّنُ فِي وَصْفِ الْعَذَابِ بَيْنَ عَظِيمٍ، وَأَلِيمٍ، وَمُهِينٍ، وَالْأَلِيمُ: ذُو الْأَلَمِ، وَالْمُهِينُ: ذُو الْإِهَانَةِ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ يَتَوَارَدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ كَمَا لَا يَخْفَى، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ مُنَاسَبَةَ كُلِّ وَصْفٍ لِآيَتِهِ"(١).

● **ثانيًا. المناسبة بين آية وآية:**

قد تأتي المناسبة بين الآية والآية واضحة يُدركها كل من يقرؤها، وقد تكون خفية لا يدركها إلا من كان له بصيرة في أسرار عظمة الترتيب والنظم القرآني.

مثال ١: قوله –تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

ولعل وجه التناسب بين هذه الآية والتي قبلها(٣) هو من أعظم وجوه التناسب في القرآن الكريم؛ حيث إن فِيهَا إِبْطَالًا وإقرارًا، إبطالا لاعتقاد مَا كَانَت عليه الأديان السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في أماكن مخصوصة، وإقرارا لقيمة العبادة الاجتماعية التي يجتمع فيها الناس في مكان مخصوص وهو المسجد، حيث تكون هذه العبادة مدعاة لأن يرى الناس بعضهم بعضًا، فتتآلف القلوب وتتقارب، فإذا حدثت تلك الألفة تحابوا، وتعاطفوا، وتراحموا، وتكافلوا، وتعاونوا فيما بينهم على البر والتقوى، فإنهم إن اجتمعوا على عبادة إله واحد فلن يجتمعوا إلا على خير يرضاه ذلك الإله الواحد.

ولعل ما يُحدثه الاجتماع على الطاعة من الألفة والمحبة بين الناس، يكون سببًا في الحفاظ على حقوقهم، وأعراضهم، ودمائهم، فهو بذلك أحد الأسرار التي

---

(١) رشيد رضا – المنار: ٤/ ٢٠٧. وبهذه المعاني نفسها يذكر الإمام البقاعي وجه المناسبة بين أجزاء الآية. انظر: البقاعي– نظم الدرر – ٢/ ١٨٦.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١١٥.

(٣) هي قوله –تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ سورة البقرة: الآية: ١١٤.

من أجلها فرضت الصلاة، بل العبادة كلها، قال -تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[1].

يقول رشيد رضا في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها، وجوه: "وَوَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا ظَاهِرٌ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ:

أ. فإن فِيهَا إِبْطَالَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمِلَلِ السَّابِقَةِ مِنِ اعْتِقَادِ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ- تَعَالَى- لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ إِلَّا فِي الْهَيْكَلِ وَالْمَعْبَدِ الْمَخْصُوصِ.

ب. تُثْبِتُ لَنَا قَاعِدَةً مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الِاعْتِقَادِ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى- لَا تُحَدِّدُهُ الْجِهَاتُ، وَلَا تَحْصُرُهُ الْأَمْكِنَةُ، وَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْبِقَاعِ وَالْمَعَاهِدِ، وَلَا تَنْحَصِرُ عِبَادَتُهُ فِي الْهَيَاكِلِ وَالْمَسَاجِد..."[2].

مثال ٢: قوله -تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾[3].

ووجه مناسبة قوله -تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ...﴾ لما قبلها وهو قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ...﴾[4] هو أن الآية الأولى تُخاطب من بين مخاطباتها الفئة القائمة على دينها من أهل الكتاب، بأن جزاءهم انعدام الخوف في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة؛ لأنهم أقاموا دينهم على الوجه المطلوب منهم، في حين أن الآية التي قبلها تخاطب عامة أهل الكتاب الذين فرطوا في دينهم، فلا هم أقاموه على الوجه الذي كان عليه سلفهم، ولا هم تركوه كما هو، بل حرفوه، وزادوا عليه بما لم يكن فيه، فالخوف مكتوب عليهم في الدنيا؛ لعدم تمسكهم بدينهم، والحزن من أوصافهم في الآخرة؛ لقلة عملهم الصالح في الدنيا.

---

(١) سورة العنكبوت: جزء من الآية: ٤٥.

(٢) رشيد رضا - المنار: ١/ ٣٥٧، ٣٥٨.

(٣) سورة المائدة: الآية: ٦٩.

(٤) سورة المائدة:جزء من الآية: ٦٨.

يقول رشيد رضا: "مُنَاسَبَةُ وَضْعِ هَذِهِ الْآيَةِ هُنَا لِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا بَيَانُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يُقِيمُوا دِينَ اللهِ، وَمَا كَلَّفَهُمُ اللهُ إِيَّاهُ، لَا وَسَائِلَهُ وَلَا مَقَاصِدَهُ، فَلَا هُمْ حَفِظُوا نُصُوصَ الْكُتُبِ كُلَّهَا، وَلَا هُمْ تَرَكُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنْهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا..."(١).

● **ثالثًا: المناسبة بين الآية والآيات التي تسبقها أو تلحقها:**

فقد تكون المناسبة واضحة يُدركها جميع القراء، وقد تكون خفية لا يدركها إلا من نَوّر الله بصيرته، فتأتي الآية كي تربط بين السياقات وبعضها.

مثال ١: قوله -تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾(٢).

وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات هو أن الله –تعالى– لما أخذ مِيثَاقَ أهل الكتاب، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، واشتروا الضلالة بالهدى، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فلم يؤمنوا، وآمنوا بالطاغوت من دون الله، مع علمهم بعقاب الله –تعالى– ومغفرته لمن رجع وأناب؛ أراد –سبحانه– للأمة المحمدية ألَّا تسلك مسلك أهل الكتاب، فأمرها أن تُؤدي الأمانات إلى أهلها، سواء أكانت هذه الأمانة مادية أم معنوية، ولعل أولى الأمانات بالمعاهدة الأمانة العليا، وهي الإيمان بالله، ثم الأمانة التي تتعلق ببني الإنسان، ثم الأمانة التي ترتبط بالنفس.

يقول الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: "بَعْدَ مَا بَيَّنَ اللهُ –تَعَالَى– لَنَا مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا بَيَّنَهُ ـ حَتَّى تَفْضِيلَهُمُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْهِدَايَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَحْدَهُ، وَبِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ـ أَدَّبَنَا بِهَذَا الْأَدَبِ الْعَالِي، وَأَمَرَنَا بِالْأَمَانَةِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ الِاعْتِرَافُ بِالْحَقِّ، سَوَاءٌ كَانَ الْحَقُّ حِسِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا..."(٣).

---

(١) رشيد رضا – المنار: ٦/ ٣٩٥،٣٩٤.

(٢) سورة النساء: الآية: ٥٨.

(٣) رشيد رضا – المنار) – ٥/ ١٣٨.

مثال ٢: قوله -تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾[(١)].

والوجه في مناسبة قوله -تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾[(٢)] في حالة الفصل، وهو عدم عطف الراسخين في العلم على لفظ الجلالة، هو أن الراسخين في العلم لما أقروا بأن المحكم والمتشابه كل من عند الله -تعالى، مع عدم علمهم بمراد الله -تعالى- منه، فالمحكم يعملون به، والمتشابه يؤمنون به، فقول الراسخين في العلم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ هو الهداية التي طلبوها في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، ثم يجيء الدعاء بعد ذلك بطلب الثبات من الله على هذه الهداية حتى الممات، والمعنى: يا رب ثبتنا على عبادتك والإيمان بما أنزلت على الوجه الذي أردت، ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ.

أما وجه مناسبة قوله -تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لقوله -تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ في حالة الوصل، وهو عطف الراسخين في العلم على لفظ الجلالة هو أن الراسخين في العلم لما كانوا عالمين بتأويل المتشابه، وكانوا لا يأْمَنُون على أنفسهم الفتنة، مع خوفهم، فأخذوا يُذَكِّرون أنفسهم بيوم الجمع؛ كي يكون ذلك سببًا في زيادة خوفهم ورهبتهم من الله؛ فيحملهم ذلك على الثبات وعدم الزيغ، أو الميل، تبعًا للأهواء.

ويمكن إيجاز مناسبة الآيتين للآية التي قبلها في أن: الدعاء مَبْعَثُ الثبات على الإيمان وعدم الزيغ، والْخَوْفُ منَ اللهِ مَبْعَثُ أَخْذِ الْحَذَرِ وَالبُعْدِ عن الزَّيْغِ.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان: ٨،٩.

(٢) سورة آل عمران:جزء من الآية: ٧.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: "إِنَّ مُنَاسَبَةَ هَذَا الدُّعَاءِ لِلْإِيمَانِ بِالْمُتَشَابِهِ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْآخِرَةِ، أَيْ: أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَضْمُونِهِ وَالْمُرَادِ مِنْهُ وَمَا يَئُولُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ يَوْمَ الْجَمْعِ؛ لِيَسْتَشْعِرُوا أَنْفُسَهُمُ الْخَوْفَ مِنْ تَسَرُّبِ الزَّيْغِ..."(١).

● **رابعًا: المناسبة بين الآية والقصة:**

إذا كان رشيد رضا يربط بين الآية والآية، فإنه أيضًا يربط بين الآية والقصة، كربطه بين قصة إبراهيم عليه السلام – في محاجته مع النمرود– وبين ما قبلها من الآيات.

مثال ١: قوله –تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾(٢).

لا يخفى ما بين قصة إبراهيم عليه السلام والآية التي قبلها من أوجه الاتصال؛ إذ إن الآية التي تسبق القصة تُعد بمثابة العنوان لها، والإعلان عنها؛ فالآية تُعلن عن ولاية الله للمؤمنين وكفايته لهم، وكيف أن ولايته وكفايته لهم تكون سببًا في هدايتهم ونجاتهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والحجة والبرهان، ثم جاءت القصة بعد ذلك لتكون مثالًا تطبيقًا لبيان أهمية تلك الولاية وهذه الكفاية الإلهية، والتي تمثلت في شخص الخليل إبراهيم عليه السلام، وكيف أن الولاية كانت سببًا هاديًا له في تلك المحاجة التي دارت بينه عليه السلام وبين مدعي الألوهية، حينما قال له: أنا أحيي وأميت، فجاءت ولاية الله –تعالى– لإبراهيم عليه السلام، فهدته إلى ما فيه نصره على

(١) رشيد رضا – المنار: ٣/ ١٩٠.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان: (: ٨،٩).

خصمه، بالدليل القاطع الذي لا يقبل الشك، بقوله: إن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الكافرين.

هذا، ولما لم تكن للنمرود ولاية من الله تهديه، جاءه العمى من طاغوته وشيطانه، فتمسك بحجته المزيفة، وجدله العقيم لأن يأمر بقتل أحد جنوده، وهو لا يدري أوجه الفرق بين الموت والقتل، فهو يخرج من ظلمة إلى ظلمة ، حائر لا يهتدي؛ لأنه يفتقر لولاية الله –تعالى– له.

يقول الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: "الْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ وَشَاهَدٌ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ كَيْفَ كَانَ يَهْتَدِي بِوِلَايَةِ اللهِ لَهُ إِلَى الْحُجَجِ الْقَيِّمَةِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الشُّبَهَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَيَظَلُّ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَإِلَى الَّذِي حَاجَّهُ كَيْفَ كَانَ بِوَلَايَةِ الطَّاغُوتِ لَهُ يَعْمَى عَنْ نُورِ الْحُجَّةِ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ ظُلْمَةٍ مِنْ ظُلُمَاتِ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ إِلَى أُخْرَى"(١).

مثال ٢: قوله –تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾(٢).

وجه الاتصال بين قصة ابني آدم والآيات التي قبلها –رغم ورودها في سياق حديث القرآن عن أهل الكتاب من اليهود وشأنهم مع النبي ﷺ، وهم من خالفوا أمر الله –تعالى– في قتال الجبارين، وبين عقوبة أولئك الذين يخرجون على أئمتهم، فيهددون الأمن القومي للبلاد، وما تلاه بعد ذلك من عقوبة السارق –هو ذاك الشبه في صفتي الحقد والحسد، اللتين تأصلتا في نفوس كل مِنْ: المخالف أمر الله من اليهود، قاتل أخيه، الخارجين على أئمة الهدى والعدل، آكل أموال الناس بالباطل؛ فقد كانت هذه الصفات سببًا في أن أعمت قلوبهم عن رؤية الحق، وأصمت آذانهم عن سماع الهدى.

---

(١) رشيد رضا – المنار: ٣/ ٣٩.

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢٧).

يقول رشيد رضا: "فَمُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِلسِّيَاقِ فِي جُمْلَتِهِ أَنَّهَا بَيَانٌ لِكَوْنِ الْحَسَدِ الَّذِي صَرَفَ الْيَهُودَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَحَمَلَهُمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ.."[1].

● **خامسًا: المناسبة بين القصة والقصة:**

كما يجتهد رشيد رضا في إظهار المناسبة بين الآية والقصة فإنه يجتهد أيضًا في الكشف عن المناسبات بين القصة والقصة.

مثال ١: قوله -تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[2].

وجه المناسبة بين قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ[3] وقصة نَبَأِ من آتَاهُ اللهُ آيَاتِهِ، فَانْسَلَخَ مِنْهَا هو ذاك الشبه الحاصل بينهما، فكلا الفريقين مَنّ كل قصة قد مَنّ الله عليه بِمِنَنٍ جليلة، لكنّ كليهما قد بدل نعمة الله عليه بالعصيان، والفسوق، والإسراف؛ فأنزل الله بهم عذابه وعقابه، وتلك سنة الله العامة في خلقه ممن عصاه.

فالأُولى قصة بني إسرائيل، منّ الله عليهم بِمِنَنٍ كثيرة منها: دخول القرية التي جعلها الله لهم وطنًا وسكنًا، وإذنه لهم بأن يأكلوا منها حيث شاءوا، ثم شكره على هذه النعم بالسجود، والخضوع، والاعتراف بالنعمة، والشكر للمُنْعِم، مع سؤال المغفرة، ووعدهم بمغفرة الذنوب والثواب العاجل، فَبَدَّلَوا، وظَلَمُوا، واستهانوا بأمر الله -تعالى.

---

(١) رشيد رضا - المنار: ٦/ ٢٨٠.

(٢) سورة الأعراف: الآيات: (١٧٥-١٧٦).

(٣) بداية قصة بني إسرائيل، من قوله -تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إلى قوله -تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ سورة الأعراف: الآيات: (١٥٩-١٦٩).

والقصة الأخرى، قصة رجل مَنّ الله –تعالى– عليه بتعليمه كتابه، فصار عالمًا كبيرًا، وحبرًا نحريرًا، فانسلخ من ذلك العلم، ومن الاتصاف الحقيقي به، وبدّل مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال والأفعال بالخلود إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنية، فنبذ كتاب الله وراءه ظهريًا؛ فتسلط عليه الشيطان.

يقول رشيد رضا: "ومناسبةُ هَذِهِ لِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً أَنَّهَا بَيَانٌ لِجَرَيَانِ سُنَّةِ اللهِ الْعَامَّةِ فِي عِقَابِ الْأُمَمِ، وَانْطِبَاقِهَا عَلَى الْيَهُودِ عَامَّةً، بَعْدَ بَيَانِ عِقَابِهِ –تَعَالَى– لِطَائِفَةٍ مِنْهُمْ"(١).

مثال ٢: قوله –تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾(٢).

وجه المناسبة بين القصتين أن الله –تعالى– لَمّا ذَكَرَ نداءه لبني آدم بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ...﴾(٣) أردف بعطف ذكر دعوة أول نبي مرسل، وهو نوح ﷺ، تحقيقًا لندائه في الآية السالفة الذكر، داعيًا قومه إلى توحيد الله –تعالى، حيث لا إله لهم غيره، فإن هم أطاعوا ذلك أيدهم بتأييده، وأهلك المعاندين، في دلالة منه إلى أن دعوة المرسلين قد اتفقت على دين واحد، فما من رسول يأتي إلا ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(٤).

---

(١) رشيد رضا – المنار: ٩/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: جزء من الآية: (٣٥).

(٤) وهو قول نوح ﷺ لقومه: في سورة الأعراف: الآية: (٥٩)، سورة المؤمنون: الآية: (٢٣)، وقول هود ﷺ لقومه: في سورة الأعراف: الآية: (٦٥)، سورة هود: الآية: (٥٠)، وهو قول صالح ﷺ لقومه: في سورة الأعراف: الآية: (٧٣)، سورة هود: الآية: (٦١)، وهو قول شعيب ﷺ لقومه: في سورة الأعراف: الآية: (٨٥). وهو قول عيسى ﷺ لقومه حيث قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ في سورة آل عمران: الآية: (٥١)، سورة مريم: الآية: (٣٦). وبقوله ﷺ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، في سورة المائدة: الآية: (٧٢)، سورة المائدة: الآية: (١١٧)، وبقوله أيضًا ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ في سورة الزخرف: الآية: (٦٤).

يقول رشيد رضا: "هَذَا سِيَاقٌ جَدِيدٌ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ الْمَشْهُورِ ذِكْرُهُمْ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا، قَدْ سَبَقَ التَّمْهِيدُ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ نِدَاءِ اللهِ -تَعَالَى- لِبَنِي آدَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾[1] -إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ- وَمِنْهُ يُعْلَمُ وَجْهُ التَّنَاسُبِ وَاتِّصَالِ الْكَلَامِ"[2].

● **سادسًا: المناسبة بين الأحكام الفقهية:**

عند تناول السورة لمجموعة من الأحكام الفقهية لابد وأن يكون لورود تلك الأحكام حكمٌ بالغةٌ، وغايةٌ نافذٌة.

مثال ١: قوله -تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾[3].

وجه مناسبة تعاقب ذكر الحكمين هو أن من النصارى قسيسين يقومون بمهمة تعلم علم الكتاب، ورهبانًا يُنفّذون المطلوب من ذلك العلم، وبصنيعهم هذا أصبحوا أقرب مودة للمؤمنين، ولما كان ذلك كذلك قد يرغب بعض المؤمنين في التشبه بالنصارى في رهبانيتهم التي ابتدعوها، ظنًا منهم بأنها درجة عالية تقربهم إلى الله ﷻ، وهي في مضمونها مناقضة لشريعة الإسلام، التي لا تُحّرم الطيبات على طريقة هؤلاء النصارى، فنزلت الآية كي تقطع الطريق أمام هذا اللبس في الفهم الذي قد يحدث، بنهي المؤمنين عن سلوك مثل هذا الطريق.

يقول رشيد رضا: "ذَلِكَ أَنَّهُ -تَعَالَى- ذَكَرَ أَنَّ النَّصَارَى أَقْرَبُ النَّاسِ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا[1]، وَذَكَرَ مِنْ سَبَبِ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا، فَكَانَ مِنْ

---

(١) رشيد رضا - المنار: ٨/ ٤٣٦. يشير إلى قوله -تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾. سورة الأعراف: الآيات: (٣٥،٣٦).

(٢) رشيد رضا - المنار: ٨/ ٤٣٦.

(٣) سورة المائدة: الآية: (٨٨).

مُقْتَضَى هَذَا أَنْ يَرْغَبَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الرَّهْبَانِيَّةِ، وَيَظُنَّ الْمَيَّالُونَ لِلتَّقَشُّفِ وَالزُّهْدِ أَنَّهَا مَرْتَبَةُ كَمَالٍ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللهِ -تَعَالَى، وَهِيَ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِتَحْرِيمِ التَّمَتُّعِ بِالطَّيِّبَاتِ طَبْعًا مِنَ اللُّحُومِ وَالْأَدْهَانِ وَالنِّسَاءِ، إِمَّا دَائِمًا كَامْتِنَاعِ الرُّهْبَانِ مِنْ الزَّوَاجِ أَلْبَتَّةَ، وَإِمَّا فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ كَأَنْوَاعِ الصِّيَامِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا، وَقَدْ أَزَالَ اللهُ -تَعَالَى- هَذَا الظَّنَّ، وَقَطَعَ طَرِيقَ تِلْكَ الرَّغْبَةِ بِقَوْلِهِ..." (٢).

مثال ٢: قوله -تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ۖ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٣﴾﴾"(٣). ووجه المناسبة بين حكم من حضرته الوفاة، وبين حكم القصاص أنه إذا كان الموت معناه انقطاع الحياة بسبب مباشر أو غير مباشر فإن القصاص جزء أو فرع منه؛ لأنه انقطاع الحياة بسبب مباشر ومعروف، وهو القصاص، فما يُطْلَب لمن يحضره الموت يُطْلَب لمن يحضره القصاص، ولما كان ذلك كذلك، عطف الله -تعالى- آية الوصية لمن حضرته الوفاة على آية حكم القصاص للمشابهة بين من يَلْقَى حتفه بالموت، وبين من يَلْقَى حتفه بالقصاص، وهو أن كليهما انقطاع للحياة عن صاحبها.

يقول رشيد رضا: "وَجْهُ التَّنَاسُبِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا قَبْلَهَا، هُوَ أَنَّ الْقِصَاصَ فِي الْقَتْلِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْمَوْتِ، يُذَكِّرُ بِمَا يُطْلَبُ مِمَّنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ الْوَصِيَّةُ، وَالْخِطَابُ فِيهِ مُوَجَّهٌ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ بِأَنْ يُوصُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا سِيَّمَا فِي حَالِ حُضُورِ أَسْبَابِ الْمَوْتِ وَظُهُورِ أَمَارَاتِهِ لِتَكُونَ خَاتِمَةُ أَعْمَالِهِمْ خَيْرًا"(٤).

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٨٢). الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

(٢) رشيد رضا - المنار: ١٦/٧، ١٧.

(٣) سورة البقرة: الآيات: (١٨٠).

(٤) رشيد رضا - المنار: ١٠٨/٢. وانظر أمثلة أخرى: (٧٩/٣).

● **سابعًا: المناسبة بين أجزاء السورة وخاتمتها:**

يشير رشيد رضا في غير موضع من تفسيره إلى المناسبة بين فاتحة السورة وأجزائها وخاتمتها.

مثال ١: قوله -تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

ووجه الاتصال هنا أن الله -تعالى- لَمَا ذكر في بداية السورة، أنه بعث نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[2] عطف عليه بذكر قصة نبي الله نوح عليه السلام؛ تقريرًا وتأكيدًا للموافقة بين ما بُعث به ﷺ والنبيون من قبله، وهي الدعوة إلى توحيد الله -تعالى، في دلالة منه على أنه ليس بدعًا من الرسل.

يقول رشيد رضا: "وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ[3] مِنْ ذِكْرِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ بِمِثْلِ مَا بُعِثَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،... وَأَنَّ حَالَهُ مَعَهُمْ كَحَالِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مَعَ أَقْوَامِهِمْ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا"[4].

مثال ٢: قوله -تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

---

(١) سورة هود: الآيات: (٢٥-٢٧).

(٢) سورة هود: جزء من الآية: (٢).

(٣) سورة هود: (١-٢). الآيات: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

(٤) رشيد رضا - المنار: ١٢/٥١. وانظر (١٠/١٨٥،١٨٤، ١٠/٤٥٩، ٤٦٠).

جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[(١)].

والتناسب هنا ظاهر بين أجزاء السورة الكريمة، حيث ذكرت الأوامر والأحكام مفصلة بين ثناياها، ثم جاءت الخاتمة بخلاصة الأمر والقول الفصل، وكأن نهاية السورة هي خلاصة القول في التعريف الموجز بالصراط المستقيم.

يقول رشيد رضا: "وَهَذِهِ الْخَاتِمَةُ مُنَاسِبَةٌ لِجُمْلَةِ السُّورَةِ فِي أُسْلُوبِهَا وَمَعَانِيهَا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ مِمَّا امْتَازَتْ بِهِ السُّورَةُ كَثْرَةُ بَدْءِ الْآيَاتِ فِيهَا بِخِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ بِكَلِمَةِ (قُلْ)؛ لِأَنَّهَا لِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ،... فَجَاءَتْ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ بِالْأَمْرِ الْأَخِيرِ لَهُ ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْقَوْلَ الْجَامِعَ لِجُمْلَةِ مَا قَبْلَهُ، وَهُوَ أَنَّ مَا فُصِّلَ فِي السُّورَةِ هُوَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ..."[(٢)].

- **ثامنًا: المناسبة بين السورة والسورة:**

لما طال الحديث عن المناسبات بين الآيات وبعضها كان من الضروري ذكر المناسبات بين السور وبعضها؛ لذا فإن رشيد رضا قد ألزم نفسه بالبحث عن ذكر المناسبة بين السورة والسورة، وبين السور وبعضها.

مثال ١: المقارنة المقدمة بين سور القرآن، بداية من سورة البقرة وانتهاء بَالتَّوْبَةِ، يقول رشيد رضا: "سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَجْمَعُ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِأُصُولِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوعِهِ،... وَالسُّوَرُ الطِّوَالُ الَّتِي بَعْدَهَا مُتَمِّمَةٌ لِمَا فِيهَا، فَالثَّلَاثُ الْأُوَلَى مِنْهَا مُفَصِّلَةٌ لِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ...وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْعَقَائِدِ هُوَ الْأَهَمُّ الْمُقَدَّمُ فِي الدِّينِ، وَكَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ؛ قُدِّمَتِ السُّوَرُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى مُحَاجَّتِهِمْ بِالتَّفْصِيلِ، وَنَاسَبَ أَنْ يَجِيءَ بَعْدَهَا مَا فِيهِ مُحَاجَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِالتَّفْصِيلِ، وَتِلْكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ لَمْ تَسْتَوْفِ ذَلِكَ سُورَةٌ مِثْلُهَا، فَهِيَ مُتَمِّمَةٌ لِشَرْحِ مَا فِي سُورَةِ

(١) سورة الأنعام: الآيات: (١٦٢-١٦٤).

(٢) رشيد رضا – المنار: ٨/٢١٠.

الْبَقَرَةِ... وَجَاءَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ بَعْدَهَا مُتَمِّمَةً لِمَا فِيهَا... وَمِنَ التَّنَاسُبِ بَيْنَهُمَا فِي الْأَحْكَامِ أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ قَدْ ذَكَرَتْ أَحْكَامَ الْأَطْعِمَةِ الْمُحَرَّمَةِ فِي دِينِ اللهِ وَالذَّبَائِحِ بِالْإِجْمَالِ، وَسُورَةُ الْمَائِدَةِ ذَكَرَتْ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ... إلى أن قال: هَذَا مَا أَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ التَّنَاسُبِ فِي الْكُلِّيَّاتِ بَيْنَ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي شَرَعْتُ فِي تَفْسِيرِهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مُطْلَقًا"(١).

مثال٢: يقول أيضًا فيَ وَجْه مُنَاسَبَة سُورَةِ الأنفال لِلْأَعْرَافِ:"أَنَّهَا فِي بَيَانِ حَالِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ، وَسُورَةُ الْأَعْرَافِ مُبَيِّنَةٌ لِأَحْوَالِ أَشْهَرِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، هَذَا هُوَ الْعُمْدَةُ"(٢).

منهج رشيد رضا في علم المناسبات:

بعد أن أثبت البحث مدى اهتمام رشيد رضا بعلم المناسبات في تفسيره تحاول هذه الكلمات الإشارة السريعة إلى المنهج الذي سلكه رشيد رضا في بيان وجوه التناسب بين الآيات والسور، وذلك من خلال استنباط منهجه من المناسبات السابقة.

وقد تبين لي أن منهج رشيد رضا في عرض المناسبات القرآنية يعتمد على أمرين:

١. الدقة والإيجاز في العبارة.

٢. قلة التنظيم في عرض المناسبات.

وإليك تفصيل يسير لهذا الإجمال:

أولاً: الدقة والإيجاز في العبارة:

يتميز منهج رشيد رضا في ذكر المناسبات القرآنية بالدقة في العبارة والإيجاز الشديد، فهو يذكر وجوه المناسبة بين الآيات والسور والقصص، ولعل هذا يرجع إلى أن علم المناسبات في تفسير المنار لم يكن هو المقصد من كتابة التفسير، وإنما

(١) رشيد رضا – المنار: ٧/٢٤١، ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق: ٩/٤٨٤.

جاء علمًا كأي علم من علوم القرآن المساعدة على الوصول إلى الهدف من كتابة التفسير.

ولإيضاح ذلك يمكن إيراد المثال التالي:

قوله –تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾[(١)]، يذكر رشيد رضا وجه التناسب في هذه الآية بين كلمتي الجاهل والشيطان، شارحًا ذلك بعبارة دقيقة موجزة، فيقول: "وَمِنْ فُرُوعِهِ التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْجَاهِلِينَ، أَيِ: السُّفَهَاءِ الَّذِينَ أَمَرَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمُ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ، وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ الَّتِي أَمَرَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْهُمُ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ"[(٢)].

وعليه، فالجاهل هو من يعلم قضية تخالف الواقع الذي هو فيه، فيحتاج إلى من يساعده على تغيير فهمه، ثم إقناعه بالقضية الصحيحة على الوجه المطلوب، أما الشيطان فهو من يعلم قضية موافقة للواقع الذي هو فيه، ومع ذلك يخالف فعله فهمه وقناعته، فالنسبة بينهما كنسبة العابد الذي يعمل مع جهله، إلى العالم الذي لا يعمل مع علمه.

ثانيًا: قلة التنظيم في عرض المناسبات:

فرغم أن رشيد رضا كان يبدأ تفسير الآية بذكر مناسبتها فإن ذلك لم يكن مطردًا في كل الآيات التي تناولها بالتفسير؛ لذلك يُؤخذ عليه أن عرضه للمناسبات جاء عرضًا غير مرتب، وقلة الترتيب هذه تتمثل في عدم إفراده للمناسبة عنوانًا مستقلًا، يتناول تحته المناسبة التي يُوردها عند ذكر الآية المراد تفسيرها؛ مما جعل ذكر هذه المناسبات متداخلًا مع العلوم الأخرى داخل التفسير، وقد يُعذر رشيد رضا في ذلك؛ لأنه لم يُخَصِص تفسيره لذكر هذا الفرع من العلم؛ ومن ثم فإن المناسبات عنده تنازع غيرها من العلوم الأخرى.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتين: (٩٩،١٠٠).

(٢) رشيد رضا – المنار: ٩/ ٤٥٠.

الخاتمة

من خلال البحث عن أوجه التناسب بين سور القرآن وآياته وقصصه تجلت لنا مجموعة من النتائج والتوصيات تتمثل فيما يأتي:

أولاً: النتائج:

١. أكدت الدراسة أن الْقُرْآن الكريم لَا يُشْبِهُ شَيء مِما كتبه ويكتبه الناس، فهو لَمْ يَأْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُؤَلِّفِينَ من حيث أُسْلُوبِهِ، ومِنْهَجِهِ، وتَرْتِيبِهِ، ونظمه، لذلك كان تَأْثِيرُهُ فِي الْأَذْهَانِ تأثيرًا عجيبًا، ومن عجائبه أنه يوردُ الْأَحْكَام فِي سِيَاقِ الْوَقَائِعِ؛ لما لها من وقعٍ فِي النَّفْسِ قد يستَعْصِى عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ.

٢. أظهرت الدراسة أن علم المناسبات علم شريف من جملة علوم القرآن؛ فهو مما يعين على بيان المقصود من القرآن الكريم، كما أن الناظر إلى حسن لفظ القرآن، وبراعة مسلكه يجد وكأنه سبيكة واحدة، أو عقد نظيم، يترجح لديه بأن ترتيبه توقيفي من الله –تعالى، ولعل هذا ما دفع المفسرين للبحث عن علله؛ إذ إن الترتيب لَمَا كان توقيفًا تعين أن يكون من وراء هذا التوقيف حكمًا ينبغي البحث عنها.

٣. كشفت الدراسة عن إمكانية استخلاص كتاب مستقل في مناسبات القرآن بأنواعها المختلفة من تفسير المنار، يكون مرجعًا مهمًا في بابه؛ وذلك لأن ما كُتب في مناسبات القرآن إذا قيس بما كتب في علوم القرآن الأخرى نجده نزرًا يسيرًا.

٤. بيّنت الدراسة أن موضوع التناسب بين آيات القرآن وسوره، والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وكذا الوحدة الموضوعية للقرآن كله، على اعتبار أنه كالكلمة الواحدة؛ هو من الموضوعات التي ينبغي أن تتفرغ لها جهود العلماء،

والمهتمين بالدراسات القرآنية؛ فهو مما يعين على الفهم الصحيح لكتاب الله – تعالى.

ثانيًا: التوصيات:

القارئ لتفسير المنار يجد نفسه أمام موسوعةٍ علميةٍ خصبةٍ للدراسات العلمية في شتى ميادين العلم والمعرفة، من لغة، ونحو، وبلاغة، وعلم كلام، وغيرها كثير، فهو بحق موسوعة كبرى في معارف متنوعة.

وقد ظهر لي من خلال البحث، وجود بعض الموضوعات، التي يمكن إفرادها بالدراسة والبحث، منها:

١- المناسبات في القرآن بين الرازي ورشيد رضا: "دراسة مقارنة".

٢- المناسبات القرآنية وأثرها في التجديد والإصلاح من خلال تفسير المنار.

٣- المناسبات في القرآن بين الرازي والشعراوي "دراسة مقارنة".

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١. ابن سيده – المحكم والمحيط الأعظم – د.ت.

٢. أحمد بن فارس بن زكريا – أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة** – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – دار الفكر– ط – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٣. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي – **البرهان في علوم القرآن** – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي – ط١ – ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

٤. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى – **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**– تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي– دار الكتب العلمية – بيروت — ١٤١٥ هـ– ١٩٩٥م.

٥. جلال الدين السيوطي – **نظم العقيان في أعيان الأعيان:** – المكتبة العلمية — بيروت، د.ت.

٦. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – **الإتقان في علوم القرآن** – تحقيق: سعيد المندوب – دار الفكر – لبنان – ط١ – ١٤١٦هـ.– ١٩٩٦م.

٧. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (ت: ١٣٩٦هـ) — **الأعلام** – دار العلم للملايين — ط١٥ – ٢٠٠٢م.

٨. أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، أبو العباس، شمس الدين – **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** – تحقيق: إحسان عباس – دار صادر– بيروت — د.ت.

٩. صبحي الصالح – **مباحث في علوم القرآن** – ط ١٧ – دار العلم للملايين – بيروت — د.ت.

١٠.عبد الرحمن بن محمد ابن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، (ت: ٣٢٧هـ) – **تفسير ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين** – تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – ط١ – ١٩٩٧م.

١١.عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام – (ت: ٦٦٠هـ) – **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز** – ط١ – المطبعة العامرة – الأستانة – ١٣١٣هـ.

١٢.محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، فخر الدين – **مفاتيح الغيب** – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

١٣.محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، (ت: ٣١٠ هـ) – **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** – دار الفكر للطباعة – د.ت.

١٤.محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) – **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** – دار الفكر – بيروت – د.ت.

١٥.محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ت ٣٧٩ هـ – **تاج العروس من جواهر القاموس** – د. ت

١٦.محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١هـ) – **لسان العرب** – دار صادر – بيروت – د.ت – ١٩٩٥م.

١٧.محمد رشيد بن علي رضا (ت: ١٣٥٤هـ)– **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠م.

١٨.وجيه محمود أحمد – **المناسبات القرآنية في تفسير الفخر الرازي** – دار المعرفة – ٢٠١٠م.